

د. شريف بوشحدان
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار - عنابة -

النظرية الخيلية الحديثة وإسهامها في
الدرس الصوتي العربي

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بما أسهمت به النظرية الخيلية الحديثة في الدرس الصوتي العربي. مؤسس هذه النظرية عالم اللسانيات الجزائري د. عبد الرحمن الحاج صالح، وقد استطاع من خلال ما بذله من جهود في قراءة التراث اللغوي العربي في جانبه الصوتي، والكشف عن المفاهيم الأصلية التي أبدعها علماء العرب القدامى في زمانهم. ويبين أنها لا تقل أهمية عما أثبتته اللسانيات الحديثة. ومن جهوده أيضا دعوته إلى تعليم العربية بما تركه اللغويون العرب القدامى من أوصاف حيّة لتأديتها.

المقدمة:

نحاول من خلال هذا الموضوع إعطاء نظرة موجزة عما أسهمت به النظرية الخيلية الحديثة في مجال الدرس الصوتي العربي. وهو إسهام متميز جدير بأن نلفت إليه أنظار الباحثين والطلبة العرب. وقبل الخوض في الموضوع يحسن بنا التعريف بالنظرية الخيلية الحديثة - وهي نظرية لسانية ظهرت حديثا، مؤسسها عالم اللسان الجزائري د. عبد الرحمن الحاج صالح⁽¹⁾. والخيلية هي رمز للتراث العربي الأصيل الذي يجسده

Résumé

Cette étude intitulée «Schéhérazade dans le roman étranger» tente de de traiter de l'influence causée par Schéhérazade – le mythe littéraire – dans le roman étranger. Cette influence a connu trois étapes (l'analogie, la création et le dépassement) qui ont participé au développement de l'art romanesque, en passant des thèmes imaginaires et romantiques aux thèmes sociaux et moraux, puis aux thèmes artistiques (le nouveau roman).

الخليل بن أحمد ومن سار على نهجه من العلماء أمثال سيبويه والأخفش الأوسط وأبو علي الفارسي والرماني وابن جني وعبد القاهر الجرجاني والرضي الاسترلابادي وغيرهم من العلماء المبدعين.

فالخليل لم يبدع في العروض فقط، بل أبدع في جميع ميادين اللغة؛ أبدع في علم الأصوات والنظام الصوتي العربي وفي صناعة المعاجم، وفي علم النحو، وعرف بتحليله للمفاهيم الرياضية، وبأوصافه الدقيقة للظواهر اللغوية وتعليقاته العلمية الصحيحة⁽²⁾.

تأسست النظرية بعد اكتشاف المناهج عند أقدم النحاة والصوتيين العرب، بعد التأكد من قيمتها التي لا تقل عما أثبتته اللسانيات الحديثة. وقد أصبحت المفاهيم اللسانية الخليلية أداة لفهم كثير من القضايا التي استغلق فهمها على الباحثين، بعد أن كان الاعتماد على تفسيرها مقصوراً فقط على معطيات اللسانيات الحديثة، يقول: "وبعد أن استضأنا بما أتت به اللسانيات لفهم عبارات المتقدمين من النحاة وإدراك مقاصدهم، انعكست هذه الأشياء في البحث وأصبحنا نستضيء في الكثير من الأحيان بالنظريات والمفاهيم الخليلية الأصلية لفهم بعض الأسرار اللغوية التي ما تزال عند الكثير من الباحثين غامضة مستغلة"⁽³⁾.

وإجمالاً فالنظرية الخليلية الحديثة قوامها عناصر ثلاث:

- التراث اللغوي العربي الأصل.
- اختبار النظريات بالتكنولوجيا الحديثة.
- المقارنة مع معطيات اللسانيات الحديثة.

وقد قسمنا دراستنا إلى قسمين:

- 1- العمل على إبراز أصالة الدرس الصوتي العربي.
- 2- الدعوة إلى تعليم العربية باستثمار ما تركه اللغويون العرب القدامى من أوصاف حيّة دقيقة لتأديتها.

وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل فيما يلي:

أولاً: إبراز أصالة الدرس الصوتي العربي:

وقد عمل صاحب النظرية على توجيه الباحثين العرب إلى الأهمية التي تكتسبها أقوال العلماء الأوائل، أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه والرماني وابن جني وغيرهم، وإلى قراءتها بموضوعية بالغة دون أن يسقطوا عليها مفاهيم النظريات الغربية الحديثة، والتصورات اليونانية التي وجدوها في دراساتهم اللسانية، ودون الوثوق بل الأخذ بما ورد في كتب المتأخرين من النحاة خصوصاً بعد القرن الخامس للهجرة. وهي الفترة التي بدأ فيها التقليد يدبّ في العلوم الإسلامية وكتابات النحاة والبلاغيين. وقد برّر ميل الناس إلى كتب المتأخرين من اللغويين وتركهم للآثار البديعة التي أنجزها العلماء الأوائل بـ"استغلاق أقوال العلماء الأولين على أكثر أهل زماننا بعد أن استغلفت أيضاً على مَنْ عاش بعد القرن الخامس إلّا مَنْ شذّ. وسبب ذلك يدرك بسهولة، وهو استبدال مفاهيم نشيطة إجرائية بمفاهيم أخرى جامدة تأملية، مع بقاء نفس الألفاظ التي تدلّ عليها في الغالب"⁽⁴⁾.

ويرى د/ عبد الرحمن الحاج صالح أن المنهج العلمي للتعامل مع أقوال المتقدمين من اللغويين يقتضي معالجتها معالجة شاملة وبالانطلاق من النصوص المحققة وبالتجرّد من الأحكام المسبقة وخصوصاً ما يعود منها إلى المستشرقين القدامى، وبالاعتماد على الاختبار المستمر (في المخابر الصوتية وغيرها) ثمّ بالمقارنة بين أقوالهم وما توصل إليه العلم الحديث"⁽⁵⁾.

وإجمالاً فإنّ الموضوعية تفرض على العالم أن لا يتعصّب للقديم باسم التراث، ولا يناصر الغربيين باسم الحداثة، لأن الأصالة في النظرية الخليلية الحديثة تقابل التقليد وليست ضد الحداثة⁽⁶⁾. إنها لا تقتصر هنا على فترة زمنية محدّدة بل تتجاوز كل الأزمنة لتطلق على كل عمل يناقض التقليد والتشويه.

وبعد قراءة معمقة للتراث العربي وجد أنّ العلماء الأوائل قد أبدعوا في زمانهم مفاهيم لم يسبقهم إليها أحد. وهي مفاهيم لا تقل أهمية عمّا أثبتته اللسانيات الحديثة، بل قد تفوقها عمقا في بعض الأحيان. وقد عمل الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح

على الكشف عنها وعن خصوصياتها مقابل الأوصاف التي أوردها العلماء الغربيون، ونقتصر في هذا المقام على المفاهيم الصوتية ونذكر أهمها:

1- مفهوم الحرف والحركة:

ويرى أن هذين المفهومين العربيين هما نشيطان إذا ما قارناهما بالمفهومين الغربيين المقابلين لهما وهو الصامت (consonne) والمصوّت (voyelle) وهذان الأخيران في نظره سكونيان يجعلان من الكلام مجرد مقاطع موصول بعضها ببعض (7).

فالحرف (8) هو أصغر قطعة من السلسلة الكلامية. ولا يجوز له أن ينفصل بنفسه، لأن النطق بالحرف الواحد مستحيل كما يشير إلى ذلك علي ابن إسحاق الرّماني أكبر شراح كتاب سيبويه (9).

ولتحقيق ذلك لا بد من وجود الحركة لأن السكون لا يسمح بإخراج الحرف. ونطقنا بالساکن لا يتم إلا في مدرج الكلام حين يسبق الحرف الساكن بحركة أو يتبع بها. يحدث ذلك لأن الوصل هو الأصل في الكلام. وهذا من أهم اكتشافات النظرية الخليلية الحديثة التي أكدت على أن الحرف لا يمكن النطق به إلا موصولا مع غيره، أي في سياق متسلسل من الحروف والحركات. وكان القدماء قد أطلقوا على هذا المفهوم مصطلح الإدراج (10) وهذا الذي قصده الرّماني بقوله: "لا يتكلم بحرف واحد حتى يوصل بغيره" (11).

ويستخلص الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ممّا تقدم أن الحركة هي السبب الرئيس لإحداث الحرف، وحضورها يمكّن المتكلم من الانتقال إلى حرف آخر؛ وهي وسيلة إدراجه داخل السلسلة الكلامية حتى يكون الكلام ممكنا، وقد عرّف الحركة في مقابل السكون (12) بقوله: "الحركة هي قبل كلّ شيء الدفعة والنقلة العضوية والهوائية التي يتم بها الإدراج، فهي إطلاق بعد حبس، فيلزم من ذلك الانتقال، أي التحرك إلى مخرج آخر. وأما السكون فهو حبس بعد إطلاق، وهو وقف لا يلزم منه الانتقال إلا بتحريك جديد" (13).

ويرى أن هذا ما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة التي أكدت على أن حدوث الكلام لا يتم بضم حرف إلى مصوّت ثم ضم المصوّت إلى حرف آخر وهكذا، بل بتحريك الحرف مع الإتيان بحرف ساكن بعده أو متحرّك⁽¹⁴⁾، وبالتالي لا يمكن أن يلتقي ساكنان إلّا في بعض الحالات التي أشار إليها العلماء القدامى وأعطوها التفسيرات المناسبة.

2- دور الحركة في التمييز بين صفات الأصوات:

ليست مسألة تحريك الحروف وقفا على إحداثها في النطق كالجهر والهمس والشدة والرخاوة. وعليه فتحريك الحرف قد يحدث اهتزازات للحبال الصوتية فيسمى مجهورا وقد لا يحدثها فيسمى مهموسا. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى توفيقه بين أوصاف القدماء الذين اعتبروه مجهورا وأوصاف المحدثين الذين اعتبروه مهموسا. فقد دقق في الأمر وأعطى تفسيراً علمياً أنصف فيها الطرفين يقول: "أمّا الطاء فكانت مجهورة فزاحمتها الضاد، إذ صارت دالا مفحّمة في قراءة القرآن حالياً، وفي النطق الفصيح (اليوم). وهي غير التي وصفها سيبويه، فصارت الطاء مهموسة وهي خانة فارغة في نظام الفصحى القديم⁽¹⁵⁾."

وأما تسكين الحرف بعد حركة فيمكن من تمييز الحروف الشديدة من الرخوة. يقول الرضي في شرحه للشافية (260/3) "الشديدة لا يجري الصوت عند النطق بها بل إنك تسمعه في آن ثم ينقطع"⁽¹⁶⁾.

وكان "الشنتمري" في شرحه لكتاب سيبويه قد اعتمد الوقف للتمييز بين صفتي الشدة والرخاوة يقول: "والفرق بين الحرف الشديد إذا وقفت عليه انحصر الصوت عليه، والرخو إذا وقفت عليه لم ينحصر الصوت"⁽¹⁷⁾. ويعلق عبد الرحمن الحاج صالح على مفهوم جريان الصوت وانقطاعه يقول: "ويعنون بذلك أنّ صوت الحرف الرخو يمكن أن يمتدّ عندما يكون ساكناً، أي أن يردّد وتطول مدّة حدوثه إن شاء الناطق، لأن حدوثه يحصل بتضييق المخرج أي بانغلاق غير تام للقناة الصائتة. وأما صوت الحرف الشديد فلا يمكن فيه ذلك، لأنه

يحدث عند تسكين الحرف بانغلاق تام للقناة الصائتة في مدرج من مدارجها كالباء في مستوى الشفتين ويمنع هذا الانغلاق التام من امتداد الصوت⁽¹⁸⁾.

إن العرب خلافا للغربيين جعلوا أصنافا ثلاثة للأصوات على أساس درجة الانغلاق والانفتاح للقناة الصوتية. فهناك الشديدة والرخوة ثم الجامعة بين الشدة والرخوة⁽¹⁹⁾. وقد وضّح الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح أن التجارب المخبرية التي أجراها فريقه أكدت صحة ما ذهبوا إليه من أن العين ليست حرفا شديدا محضا ولا حرفا رخوا محضا⁽²⁰⁾. وكان سيبيويه والخليل قد اعتبرا العين " بين الرخوة والشديدة تصل إلى التريديد لشبهها بالحاء"⁽²¹⁾.

وبهذا تصبح العين من الحروف البينية التي تمثل صنفا ثالثا بعد الشديدة والرخوة، إذ تحدث نتيجة انقباض وانبساط سريعين للحلقوم (medio pharynx) لا وجود له في الحاء الذي هو حرف مهموس. ويرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في هذا التصنيف للعين والذي أكدته الأفلام الراديولوجية واحدا من أعظم اكتشافات علماء العرب الأوائل⁽²²⁾.

إن الحركة كما يراها أتباع النظرية الخيلية الحديثة حركة مولدة للأصوات اللغوية، وهي قوة اندفاعية للهواء التصويتي تحدث بالقدر الذي يمكنها لتجاوز الحاجز العضوي للنطق بالحرف والانتقال منه إلى حرف آخر ، وقد أطلق عليها العرب مصطلح اعتماد.

وكما هو معروف فقد نسب العرب التحرك إلى الأعضاء الناطقة منذ أن حاول أبو الأسود الدؤلي وضع نقط يعبر بها عن حركات أواخر الكلمات في القرآن الكريم⁽²³⁾.

وهذا دليل على أن النحاة الأوائل قد انطلقوا من واقع التأدية للغة العربية ولم يأخذوا بمفاهيم غيرهم من الأمم الأخرى. يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: "أسماء الأحكام الإعرابية مأخوذة من أسماء علاماتها وهي الحركات... فقد سمى النحاة هذه الأصوات الناقصة (على حدّ تعبيرهم) حركات بالمجاز. فهي في الحقيقة حركات الأعضاء اللافتة"⁽²⁴⁾.

وقد استنتج هذه الأحكام ممّا ذهب إليه النحاة العرب كقول أبي القاسم الزجاجي في الإيضاح: "[...] نسبوا ذلك كلّ إلى الحركة، فنسبوا الرفع كلّ إلى حركة الرفع لأنّ المتكلّم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى ويجمع بين شفثيه [...] والمتكلّم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه، فيبيّن حنكه الأسفل من الأعلى فيبيّن للناظر إليه كأنه قد نصبه لإبانة أحدهما عن صاحبه⁽²⁵⁾. ويقول عن الجر الذي يسمى عند بعض النحاة خفضا، والجزم مايلي: "وأما الجرّ [...] ومَنْ سمّاه منهم ومن الكوفيين خفضا، فإنهم فسّروه تفسير الرفع والنصب، فقالوا لانخفاض الحنك الأسفل عند النطق به وميله إلى إحدى الجهتين. وأما الجزم فأصله القطع [...] فكأن معنى الجزم قطع الحركة عن الكلمة⁽²⁶⁾."

وقد كشف الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في هذا السياق بين نوعين من الحركة عند العرب القدامى، هما حركة العضو اللافظ، والحركة الهوائية المتدفقة من الصدر والتي تمكّن من النطق بالحرف، والانتقال من حرف إلى آخر. و اعتبر بذلك أن الحركة لن تكون بالضرورة صوتا (أي مصوّتا *voyelle*). إنها وإن كانت في معظم الأحيان مصحوبة بمصوت، فقد يختفي صوتها بتوهينه حتى يظن أن الحرف المتحرّك بها ساكن، وذلك مثل اسم موسى: أصلها اسم موسى فارتفاع اللسان عند النطق بهما ارتفاعا واحدة أوهن حركة الميم الأولى وجعل الميمين كأنهما ميم واحدة⁽²⁷⁾. ويقع هذا في الإدغام، يقول: إن عدم الفصل بين الحرفين بزمان (زمان حركة أو مهلة وقف) هو الذي يجعل اللسان (أي آلة النطق لسانا كان أو غيره) يرتفع ارتفاعا واحدة⁽²⁸⁾.

3- ما هية حرف المد:

يعرّف حرف المد في النظرية الخليلية الحديثة بأنه امتداد لصوت الحركة لأنه لا ابتداء له، ومن هذا الجانب فهو حرف ساكن لا يستلزم الانتقال منه إلى حرف آخر. ويرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن العرب وفّقوا في التمييز بين الحركة وحرف المد، وتفتنوا إلى أن المد هو حرف قائم بنفسه لغويا، فهو علامة وإن كان غير مستقل لفظا، بمعنى لا يمكن النطق به بدون حركة قبله، إذ يتخذ لنفسه موقعا

بين العناصر الصوتية وليس عنصرا تنغيميا في السلسلة الكلامية. أما الحركة فقد تكون بلا صوت⁽²⁹⁾ عندما تختلس أو تخفى ولا يكون ذلك مع حرف المد⁽³⁰⁾.

وقد فسّر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ما ذهب إليه علماء العرب القدامى من أنّ حرف المد يتألف من عنصرين هما الحركة وامتداد صوتها، على خلاف التصور اليوناني القديم للمصوّت الطويل⁽³¹⁾. ووضّح أن العلماء العرب يرون في حرف المد ضعفا في النطق، فتتناقص قوّته في قسمه الأخير، ومن هذه الوجهة فهو كالحرف الساكن. ولهذا اعتبروا الحرف المتحرّك الأقوى، لأنه يحدث ببذل جهد أكبر بالنظر إلى الحرف الساكن. وعبروا عن القوّة الاندفاعية للحرف المتحرّك بكلمة "صرف". وكان الخليل يقول: "إنّ حرف المد لا صرف له"⁽³²⁾، لأنه امتداد بسيط للحركة، وقوّته تبعا لذلك تكون بالضرورة تنازلية.

نذكر في هذا السياق أن النظرية الخليلية تفرّق بين نوعين من المدّ: "المدّ الأصلي وهو المدّ المعروف الذي هو مَطْلُ وإطالة للصوت الهوائي اللّين وبين الامتداد الذي يحصل بحبس النفس عند تسكين الحرف غير المدّي (أي جميع الحروف ما عدا حرف المدّ وتسمى الأولى بالجوامد والثانية بالذوائب)⁽³³⁾.

والعرب مثلما أدركوا الفرق بين نوعين من الحركة أدركوا الفرق أيضا بين نوعين من السكون مثلما صرّح الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح وفسّره فيما يلي:

-سكون يتّسم بالتوقيف وحبس النفس، ويكون في الحروف الجوامد الساكنة آنيا مع قبوله الامتداد بإبقاء التّوتر العضلي، مثل سكون الباء والتاء والسين والواو والياء المفتوح ما قبلها وغيرها من الجوامد، ويحصل فيها التوقيف السكوني دفعة واحدة. ويمكن أن يمتدّ فيها حبس النفس⁽³⁴⁾.

-وسكون يحصل فيه التوقيف بالتدرّج لا دفعة واحدة ويحدث حبس النفس فيه بفتور الحركة وتلاشيها شيئا فشيئا ويكون في الحروف الذوائب (الألف والواو والياء) التي هي ساكنة زمانيا. وقد تطول الحركة ولا تضعف في حال الانتقال من هذا الحرف المدّي إلى حرف جامد ساكن في مثل دابّة ، ولا الضّالين⁽³⁵⁾.

4- مفهوم المقطع (SYLLABE):

يشير صاحب النظرية إلى أن المقطع نتاج الفكر اليوناني القديم، وأن مفهومه ولد مع مفهومي الصامت (CONSONNE) و المصوّت (VOYELLE). ونفى أن يكون مفهوم اليونانيين للمقطع، وتقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت هو نفسه الذي عرفه العرب الأوائل؛ فهذا المفهوم لم ينتقل إلى الثقافة العربية إلاّ بعد صدور أكبر كتاب في النحو وهو كتاب سيبويه، أي بعد أن ضبط الأساس من الصوتيات والنحو وانتشاره بين عامة الدارسين⁽³⁶⁾.

انتقل المفهوم اليوناني إذن عن طريق الترجمة لأغلب كتب أرسطو. وكانت كلمة SYLLABE تترجم دائما إلى مقطع؛ بمعنى مكان القطع. واصطلاحا معناه "موضع نطق القطعة". ويشير ذلك إلى أهمية الموقع الذي يتم فيه الوقف، وهو حدود المقطع لا داخله. وهذا المعنى لا يكاد يختلف عن المدلول اليوناني. والذي قام بهذا النقل هم المترجمون الفلاسفة⁽³⁷⁾. وترى النظرية الخليلية الحديثة أن مفهوم المقطع في التقاليد الغربية باعتباره أصغر وحدة صوتية منطوقة، ينطوي على وجود وحدة مستقلة في الكلمة، حيث لا تكون الحدود بالضرورة مرتبطة بعنصر سابق أو لاحق، لأنها وحدة نقوم بنطقها منفصلة أو بعد وقف⁽³⁸⁾. وبمقارنة ذلك بالمفهوم العربي للحرف والحركة والوقف على الساكن - وكلّها تفرض إدراج الحرف في السلسلة الكلامية - فإنّه يستحيل علينا النطق بالمقطع القصير منفردا في حالة وقف. وعموما، وانطلاقا من المفهوم العربي القائم على الحركة والسكون فإنّ المفهوم اليوناني [C+V] (صامت + حركة) لا يملك أية صفة من الاستقلالية الحركية و السمعية. فالدينامية العربية - كما يرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح - تفرض الانتقال من حرف إلى آخر داخل السلسلة الكلامية. لذلك فإنّ المقاطع الطويلة (صامت + مصوّت طويل أو صامت + صامت + صامت) ممكن أن تحدث بصفة انفرادية مقطعا. ولكنّ وجودها داخل تسلسل كلامي مستمر لا يكون أبدا وحدة مستقلة استقلالاً تاما. فلا ينفصل عمّا سبقه وما يتبعه لحظة جريان الصوت. ويستشهد برأي سيبويه عندما يقول عن ضمير المتكلم (أنا) بأنه ينطق عند الوقف (أنّ) كون عناصره أقلّ عدد ما يمكن النطق به

مفردا، وأنّ النون في آخره خفيفة وليست بحرف إعراب⁽³⁹⁾. ومن ذلك قولهم: "أنا فإذا واصل قال أن أقول ذلك"⁽⁴⁰⁾.

وهكذا يتّضح من قول سيبويه أنّ النطق بالعنصر الصوتي منفردا غيره إذا نطقت به داخل السلسلة الكلامية. وهذا يدلّ على دينامية النظرة العربية وشموليتها في معالجة الظواهر الصوتية إذا ما قورنت بالنظرة اليونانية. فأصحابها يهتمون فيها بما يجري من الأحداث في حدوث الكلام ولا تهتم بذوات الوحدات نفسها، ولذلك لا يكتفون بتقطيع الكلام بل يتجاوزون ذلك إلى كيفية إدراج عناصره في سياق متسلسل⁽⁴¹⁾. وهذا الذي درج عليه علماء العربية القدامى؛ فابن جني مثلاً يكشف لنا أن صوت الحرف الموصول إلى ما بعده يختلف عنه إذا وقفت عليه، يقول: "وذلك أن الحرف الساكن ليست حاله إذا أدرجته إلى ما بعده كحاله إذا وقفت عليه. ذلك لأن من الحروف حروفا إذا وقفت عليه لحقها صويت ما من بعدها. فإذا أدرجتها إلى ما بعدها ضعف ذلك الصوت، وتضاءل للحس نحو قولك: إِيْح، إِيْص، إِيْث، إِيْف، إِيْخ، إِيْكَ. فإذا قلت يَحْرِد، وَيَصْبِر، وَيَسْلِم وَيَثْرِد، وَيَفْتَح، وَيَخْرُج، خفي ذلك الصوت وقلّ وخفّ ما كان له من الجرس عند الوقوف عليه"⁽⁴²⁾.

وبعد هذه التوضيحات المرفقة بنصوص من التراث العربي الأصيل والمدعمة بنتائج الاختبار الآلي يصل إلى استخلاص النتيجة وهي: "أن المقطع ليس له وجود في مدرج الكلام، بل لا وجود له إلاّ معزولا عن المدرج [...] أي غير مدرج بل منفصل تكتفه وقفتان ليس إلاّ"⁽⁴³⁾.

فالمعادلة التقليدية كما سبقت الإشارة -لا تشكّل داخل السلسلة الكلامية استقلالية حركية ولا سمعية.

وقد أفادنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بأن باحثين من الغرب توصّلوا إلى أن المقطع فيزيولوجيا لا وجود له. فالأب روسولو (L'Abbé Rousselot) لا يراه إلاّ في الكلمة أحادية المقطع (monosyllabe)، في حين يراه الإيطالي (G /Poncolli) ضربا من الخيال لأنه لا يوجد من الناحية الفيزيائية ما يجعلنا نقول هنا ينتهي المقطع وهنا يبدأ آخر⁽⁴⁴⁾.

وقد عرّف الفارابي الحرف المتحرك بقوله: "كلّ حرف غير مصوّت أتبع بمصوّت قصير قرن به، فإنّه يسمّى المقطع القصير"⁽⁴⁵⁾.

وبعدّ الفارابي وابن سينا من الفلاسفة الذين تطرّقوا إلى المقطع بالمفهوم اليوناني، ولم يفتنهما مقارنته بالحروف والحركات عند العرب. وقد علّق الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عن ابن سينا في كتابه "أسباب حدوث الحروف" الذي يعتبر أول كتاب في الصوتيات العربية بقوله: "وهكذا نلاحظ أن ابن سينا وبالرغم من التأثير اليوناني استطاع أن يوجّه المقطع إلى العنصر المركزي في الصوتيات العربية وهو الحرف"⁽⁴⁶⁾.

ثانيا: الدعوة إلى تعليم العربية بما تركه اللغويون العرب القدامى من أوصاف حيّة دقيقة لتأديتها:

ممّا لا شكّ فيه أن تعليم اللغة العربية وتعلّمها وجعلها اللغة المستعملة بالفعل في المنازل والمدارس والمؤسسات هدف أسمى يسعى المهتمون بالنظرية الخيلية الحديثة إلى المساهمة في تحقيقه.

وإذا كانت العربية الفصحى قد انحصرت في لغة الكتابة والأدب، ولم تعد لغة التخاطب اليومي الذي تؤديه -عادة- العاميات أو اللغات الأجنبية وجب أن نبحت لها عن الوسائل الكفيلة التي تعيد إليها حيويتها ونشاطها في التعبير اليومي والعلمي. ويرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن هذه الوسائل تتحقّق بتصحيح اللغة التي نتعلّمها في المدارس بدءا من المشافهة، وذلك للحصول على لغة خالية من التكلّف الذي تتسم به لغة الكتابة والأدب⁽⁴⁷⁾.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية دعا إلى الاعتناء بالظواهر الصوتية التي رويت عن فصحاء العرب، وما تركه لنا علماء القراءات للأداء القرآني. وهي كفاءات متنوّعة في التأدية الصوتية والصرفية والنحوية لعناصر اللغة. فتلك الأوصاف المهمة لم تحظ بالناية اللازمة من قبل اللغويين المحدثين وبخاصة المهتمين بتعليم العربية وتعلّمها.

1-ظواهر الاختزال والحقّة:

ومن تلك الظواهر الاختلاس والتسكين والتخفيف للهمزة والإدغام والإبدال والقلب⁽⁴⁸⁾. وقلّما نجد كتباً في تعليم العربية تهتمّ بهذه الظواهر الصوتية لأنها ألصق بالاستعمال الحقيقي الذي يتّسم بالخفة والعفوية، ويبتعد عن التعقيد والتصنع في الكلام.

وقد أوضح الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في أكثر من مقال أن هذه الظواهر تكثر فيما أسماه مواضع الأُنس والاسترسال حيث "التعبير يسترسل فيه صاحبه لأنه يخاطب شخصا مأنوسا كصديق أو ابن أو زوجة. وفيه يكثر الإدغام والاختلاس للحركات والحذف للكلمات وغير ذلك من التخفيف المعروف⁽⁴⁹⁾. وهذا فصيح سمع عن العرب الموثوق بعربيّتهم إلاّ أنه مجهول الآن من أكثر الأساتذة والمعلمين. وهذا يدخل فيما يسميه سيبويه وأتباعه بسعة الكلام والاختصار"⁽⁵⁰⁾.

وعليه فإنّه يعتبر اللغة الفصحى التي تعلّم في المدارس وهي غير الفصحى التي تخاطب بها العرب قديما في شتى الأغراض اليومية- تتطوي على الكثير من الحشو والكلفة والغرابة في جميع مراتبها في الأداء الصوتي والكلم والتراكيب، فإنّ هذه الفصحى المدرسيّة تكاد لا تعرف الوقف واختلاس الحركات وتخفيف الهمزة والإدغام والقصر والسكت وإخفاء النون وغير ذلك من الظواهر التي رويت عن السلفيين⁽⁵¹⁾ الناطقين بالضاد ودونها النحاة الأولون وأهل الأداء. ويضيف أن هذه العربية التي تعلّم في المدارس تحتوي على كثير من التكلّف والتعقّر الذي يبلغ درجة اللحن كالوقف على المتحرّك بالمتحرّك، وعلى المختوم في الوصل بالتثوين بالنون الساكنة⁽⁵²⁾، مع أن أدنى سكتة مهما بلغ قصرها توجب الوقف بإسقاط ما يجب إسقاطه.

وبحسن بنا أن نعرض نصا أورده الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ليدعم رأيه بأن العرب تنشد الخفة ولا تحقّق الإعراب فيما يلي: "قال أبو العيّن: ما رأيت مثل الأصمعي قطّ، أنشد بيتا من الشعر فاختلّس الإعراب، ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلام العرب الدّرج، وحدّثني عبد الله بن سوار أنّ أباة قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً، وحدّثني عيسى بن عمر أنّ أبا إسحاق قال: العرب ترفرف على

الإعراب ولا تنفيها فيه. وسمعت يونس يقول: العرب تشام الإعراب ولا تحقه، وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف⁽⁵³⁾.

2- ظاهرة الوقف والابتداء:

إضافة إلى الظواهر الصوتية سألقة الذكر يلفت انتباهنا إلى ظاهرة صوتية متصلة بمدرج الكلام، وهي الوقف والابتداء. فقد ذكر أنهما مفهومان أولاهما علماء القراءات عناية كبيرة غير أنهما لم يستثمرا في دراسة النصوص، يقول عنهما: "وقلّ مَنْ يعرف أنهما الأساس في تجزئة الكلام إلى وحدات بنوية صحيحة. ولا نعلم أحدا من اللسانيين حاول قبل اليوم -في زماننا - أن يتّخذهما مقياسا لتجزئة النصوص"⁽⁵⁴⁾.

3 - ظاهرة المشاكلة والتقريب:

ويراها جديرة بالعناية عند تعليم التعبير الشفوي لأنها من الظواهر الصوتية المرتبطة بحقيقة التأدية، فهي وإن لم يكن لها دور في التمييز بين المعاني فإنّها تمكّن المتعلّم من إدراك طبيعة الأصوات مهما تقاربت⁽⁵⁵⁾. وهذا ما قصده سيبويه عندما قال: "فأما الذي يضارع به الحرف من مخرجه، فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها دال وذلك نحو صدر وأصدر [...] وسمعنا بعض العرب الفصحاء يجعلونها زايّا خالصة [...] فإن كانت سينا في موضع الصاد وكانت ساكنة لم يجرز إلاّ الإبدال إذا أردت التقريب، وذلك مثل قولك التسدير والتزدير وفي يسدل ثوبه ويزدل ثوبه"⁽⁵⁶⁾. وهذا التنوع الصوتي للحرف الواحد هو الذي أطلق عليه الغربيون مصطلح (allophone) وهذا ينطبق على التنوّعات المختلفة بين القبائل في تأدية اللفظ الواحد مع بقاء المعنى نفسه.

ولا شكّ أن علماء اللغة العرب وخصوصا الذين اشتغلوا بالقراءات القرآنية قد أدركوا جيّدا هذه الظواهر الصوتية وميّزوا بينها وبين الحروف (الفونيمات حاليا) التي تؤدي إلى التنوع في اللفظ وفي الدلالة. وكان ابن الجزري في النشر في القراءات العشر قد قصد هذا المعنى. وهو القول الذي أورده الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: "أما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والرّوم والإشمام [...] فهذا ليس من

الاختلاف الذي يتتوّع فيه اللفظ والمعنى لأن هذه الصفات المتنوّعة في أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً⁽⁵⁷⁾.

الخاتمة:

وفي الختام نستطيع القول إن النظرية الخليلية الحديثة أسهمت إسهاماً متميزاً في الدرس الصوتي العربي. ويظهر ذلك جلياً في البحوث التي كانت تنشر في مجلة اللسانيات. لقد كشفت بكل موضوعية عن جانب كبير من أعمال الصوتيين العرب وتجردّها من التصورات اليونانية القديمة. وبرهنت على أن مفهومي الحرف والحركة هما أساس البحث الصوتي العربي. وهما مفهومان نشيطان يختلفان عن مفهومي الصامت و المصوّت اليونانيين اللذين يجعلان من الكلام قطعاً مفصولة بعضها عن بعض.

إن فضل النظرية كبير في لفت أنظار الباحثين المحدثين إلى أعمال العلماء الأوائل، وإقناعهم بأنها لا تقل أهمية عن أعمال كبار اللسانيين الغربيين والصوتيين منهم، أمثال جاكبسون وتروباتوسكوي وغيرهما بل وقد تفوقها في بعض الأحيان. ولا ننسى أيضاً فضل النظرية في توظيف التكنولوجيا الحديثة في البحث العلمي اللساني بمختلف تطبيقاته وخصوصاً في الجوانب الصوتية (تحليل الكلام، تطبيق الكلام الاصطناعي...) وهذا المنهج هو الذي سار عليه عدد من الباحثين العرب المحدثين في المشرق والمغرب، فنرجو أن يمدّهم الله بالعون والتوفيق حتى تتقدّم اللسانيات العربية الأصيلة لإثراء البحث العلمي عند العرب ولخدمة اللغة العربية الخدمة الحضارية.

الهوامش:

1- ولد عبد الرحمن الحاج صالح بمدينة وهران سنة 1927م. درس في "مصر" و"بوردو" و"باريس"، تحصّل على التبريز في "باريس" وعلى دكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة "السوربون". كان أستاذا بجامعة "الرباط" بالمملكة المغربية من سنة 1961 إلى 1962م. وبعد ذلك صار مديرا لمعهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر، ثم مديرا لمركز البحوث العلمية لترقية اللغة العربية، قبل أن يعيّنه الرئيس "عبد العزيز بوتفليقة" رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 2000م. وهو عضو في المجامع العربية الآتية: دمشق، وبغداد، وعمان، والقاهرة. ويشرف حاليا على مشروع "الذخيرة العربية"، هدفه إنجاز بنك آلي للغة العربية الفصحى، يخدم كل العلوم والفنون. ينطلق من التراث اللغوي العربي الأصيل، ويواكب العصر بكل تطوّراته. إنه بحق مشروع حضاري عربي كبير. لمزيد من التفاصيل عن المشروع انظر: مشروع الذخيرة اللغوية العربية وأبعاده العلمية والتطبيقية، عبد الرحمن الحاج صالح، مقال منشور في كتابه: "بحوث ودراسات في اللسانيات

- العربية"-الجزء الأول- منشورات المجمع الجزائري للغة العربية-الجزائر 2007م، ص، 395 وما بعدها.
- 2- انظر: د. عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في الوطن العربي - ندوة تقدم اللسانيات في الوطن العربي المنعقدة في الرباط، 1987-دار الغرب الإسلامي-بيروت-ط1-1991.ص367.
- 3- د. عبد الرحمن الحاج صالح ، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية،-معهد العلوم اللسانية والصوتية، جامعة الجزائر، العدد4/ سنة1974 -ص27.
- 4- نفسه-ص281.
- 5- د. عبد الرحمن الحاج صالح أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، معهد العلوم اللسانية والصوتية، جامعة الجزائر، العدد4/ سنة1974 -ص27.
- 6- تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي الأصيل- مذكور سابقا- ص 267.
- 7- انظر: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص27 و28.
- 8- الحرف في الاصطلاح العربي القديم يقابل الفونيم (Phonème) في الاصطلاح الغربي، وهذا الأخير أصغر وحدة صوتية غير دالة، غير أنها تمكّن عند ارتباطها بفونيمات أخرى من تأليف دوال والتمييز بينها. انظر:
- Jean Dubois et autres ; dictionnaire de linguistique (phonème); librairie Larousse ;Paris,1973.**
- 9- انظر: Hadj-salah(A); la notion de syllabe et la théorie cinético-impulsionnelle des phonéticiens Arabes, Revue AL-LISANIYAT, université d'Alger,vol,1,n°1,1971, p,63.
- 10- نفسه-ص67.
- 11- الزماني ، شرح كتاب سيبويه — 5/23 وجه نقلناه عن تكنولوجيا اللغة والتراث الأصيل -مذكور سابقا-ص284.
- 12- يعلّق د.عبد الرحمن الحاج صالح على مفهومي الحركة والسكون التي أقام عليهما علماء العرب القدامى تحليلاتهم الصوتية بأنها موجودة بعينها في نظرية الإيقاع (théorie du rythme) عند علماء الموسيقى العرب، فالإيقاعية العربية تأسست أيضا على ثنائية الحركة والسكون، انظر: مرجع سابق. p69...la notion du syllabe.
- 13- تكنولوجيا اللغة والتراث الأصيل-مذكور سابقا -ص 284.
- 14- نفسه-ص285.

- 15- د. عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات ، جامعة الجزائر-العدد7-1997-ص 36.
- 16- مخطوط 142 بالخرزانة العامة بالرباط لوحة- 149- نقلناه عن-د. عبد الرحمن الحاج صالح، مسائل في التجويد لفضيلة الشيخ جلال الحنفي والإجابة عنها - مجلة اللسانيات -العدد6- 1982-ص،15.
- 17- د. عبد الرحمن الحاج صالح، مسائل في مصطلحات التجويد لفضيلة الشيخ جلال الحنفي والإجابة عنها مرجع سابق - ص 15.
- 18- نفسه-ص 15.
- 19- نفسه-ص 15.
- 20- نفسه-ص 16.
- 21- د. عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل إلى علم اللسان الحديث -مجلة اللسانيات- العدد 7-ص 17.
- 22- نفسه- الهامش-ص 17.
- 23- انظر: د. شوقي ضيف، المدارس النحوية- - دار المعارف- القاهرة- ط5- 1983م. ص 17.
- 24- د. عبد الرحمن الحاج صالح ، النحو العربي ومنطق أرسطو- مجلة كلية الآداب- جامعة الجزائر- العدد الأول- 1964- ص 82.
- 25- الإيضاح في علل النحو- تحقيق د. مازن مبارك- دار النفائس- بيروت- ط5- 1986م- ص 92.
- 26- نفسه-ص 93 و94.
- 27- انظر: تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي الأصيل- مذكور سابقا- ص 284.
- 28- انظر: مسائل في مصطلحات التجويد - مذكور سابقا- ص 17.
- 29- لهذا فرّقوا بين الحركة وصوت الحركة، وبالحركة فرّقوا بين صنفين للحرف هما: الجرس. بمعناه الطابع وهو صفة سمعية تجعلنا نفرّق مثلا بين حروف الدال والعين و الكاف.... الخ وأما الصّرف فهو قوّة اندفاعية. وقد فسّروه بالحركة، وهي حركة صوتية فيزيولوجية لا بدّ منها لإخراج الحرف، فيتحقق في مدرج الكلام أو للانتقال منه إلى حرف آخر. ونظرا لأهمية المفهوم، ولعدم وجود ما يدلّ عليه بالمقابل الأجنبي، فقد اقترح د/ عبد الرحمن الحاج صالح في المؤتمر الدولي السادس للعلوم الصوتية المنعقد في براغ عام 1967م ترجمة لفظة "حركة" بـ"kineme" ولفظة "تحرك" بـ"kinèse" وضدها "akinèse". ويرى أن المفهومين العربيين "

- متحرّك" و"ساكن" أنسب من مفهومي "سوسير" "implosif" (انحباس) و"explosif" (انفجاري)، انظر: HADJ-SALAH (A), la notion de syllabe, p 65 مرجع سابق.
- 30- انظر: مدخل إلى علم اللسان الحديث-مذكور سابقا- ص 36.
- 31- انظر: HADJ-SALAH (A), la notion de syllabe, p 66 مرجع سابق.
- 32- نفسه- ص 68 و 69.
- 33- انظر: مسائل في مصطلحات التجويد- مذكور سابقا - ص 20 و 21.
- 34- نفسه - ص 21.
- 35- نفسه - ص 21.
- 36- انظر: HADJ-SALAH (A), la notion de syllabe, p 64 مرجع سابق.
- 37- نفسه - ص 64.
- 38- انظر: HADJ-SALAH (A), la notion de syllabe, p 72 مرجع سابق.
- 39- نفسه - ص 73.
- 40- سيبويه ، الكتاب —الجزء الرابع- تحقيق وشرح عبد السلام هارون - عالم الكتب - بيروت- ط3- 1987-ص- 164.
- 41- د. عبد الرحمن الحاج صالح ، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية- - بحث منشور في كتاب للمؤلف بعنوان: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية- الجزء الأول- مرجع سابق ص 172.
- 42- ابن جني، الخصائص - الجزء الأول- تحقيق محمد علي النجار - دار الكتاب العربي- بيروت- د. ت- ص 57.
- 43- الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية- مذكور سابقا- ص 172.
- 44- انظر: HADJ-SALAH (A), la notion de syllabe, p 71 مرجع سابق.
- 45- كتاب الموسيقى الكبير - ص 1072 نقلناه عن - د. المهدي بوروبة، الدراسة المقطعية في التراث- مجلة المجمع الجزائري للغة العربية- العدد- الجزائر- سنة 2005- ص 243.
- 46- انظر: المرجع السابق : HADJ-SALAH (A), la notion de syllabe, p 65
- 47- انظر: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير - بحث منشور في كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية- الجزء الأول- مرجع سابق- ص 69.
- 48- نفسه - ص 68.
- 49- في كتاب سيبويه أبواب عديدة عن ظواهر الاختزال والخفة، يتحدّث فيها عن كلّ ما يجعل الكلام خفيفا على النطق متماشيا مع التأدية الطبيعية العادية. ولم يكن سيبويه فيها

إلاّ باحثا عن كميّات إحداث الكلام، فلا يتحدّث عن موضوع أو ظاهرة صوتية إلّاّ مدرجة في موضعها داخل قول من أقوال العرب الفصحاء. فهو يدرس مثلاّ تحريك أواخر الكلم الساكنة، والوقوف على المتحرّك بالسّاكن. ويتناول الظواهر الصوتية الأخرى كاختلاس الحركات والإشباع وعدم تحقيق الإعراب. ومن أمثلتها (هذا باب ما يسكّن استخفاً وهو في الأصل متحرّك) (الكتاب: الجزء 4- ص 113). وهي أبواب من صميم المشافهة، يجدر بنا استثمارها في تعليم العربية وتيسير تعلّمها.

- 50- الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية- مرجع سابق- ص 162 و 163.
- 51- انظر: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّس اللغة العربية- مذكور سابقا- الهامش - 30.
- 52- اللغة العربية بين المشافهة والتحرير - مذكور سابقا- ص 69.
- 53- نفسه- ص 76.
- 54- انظر: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّسي اللغة العربية- مذكور سابقا- ص 53.
- 55- انظر: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير - ص 78.
- 56- انظر: الكتاب - الجزء الرابع- ص 477 و 478 و 479.
- 57- نقلناه عن: مدخل إلى علم اللسان الحديث- مذكور سابقا- ص 11.